ألحانٌ مِن فيوضِ المَدائِن

رحلة إلى (كوبا) أرض الحب والثورة

الحلقة الثانية

خالد عبد الحليم العبسي

اعتدتُ أن أتمشّى في المساء بجوار (المالكون)، وهناك كنتُ أشعر دوما أن طقسَ هافانا يمشي في الأرض مَرَحًا؛ يزمّ بين شفتيه ويتسلّى بالصفير وهو في أحسن مزاجاته.

حرصتُ أن ألتقي بقدوم الليل في (المالكون). قصدتُ المكان ذات مرّة لأجل ذلك فقط. بدأت الشمس بالغروب وأنا جالس على حافة (المالكون)، وشرعَ لونُ الغروب يكسو بحُمرةٍ شَفَقيّةٍ ساحرةٍ الأفقَ المُمتدَ وزُرقةَ البحرِ والبنايات التي تقف على حافة المدينةِ ووجوهَ وبشرات أناس مختلفي الألوان.

انسلّت بقايا النهار وبدأت الأنوار بالاشتعال شيئا فشيئا، وحينما لم يبقَ من النهار شيء صار قبالةَ البحر خَطٌّ مقعّرٌ من الضوء، وفي نهاية الضوء برزت قلعة مورو تُحفةً تتلاعبُ بها أضواؤها لتبدو كجمانة أسطورية يتأمّلها البحر، وفي وسط القلعة انتصبت منارة قلعة (مورو) مُضيئة كشمعة عملاقة تمدُّ على صفحة البحر حُزمةً من الضوء بينها وبين الناظرين إليها، ولكنها تغرقُ قبل أن تصل إلى أحد. وللحظات خُيّل إليّ أني في لوحة رسّام، وأيقظَ المشهدُ من عمق ذاكرتي وصفا جميلا "وكانت تعرف دائما كيف تختار أسطورة تضيف على الليل معنى، وتزيده جمالا وروعة وبهاء". إنها لأحدِهم يتذكّرُ جدته وحكاياتها.

مثلَ أبناءِ هافانا صرتُ في (المالكون) وبمواجهة البحر أجدُ ما لا يُمكنني شرحه، وفي ليلة أخرى غير قمراء اتحدَ فيها البحرُ بلون الظلام -كانت لي ذكرى. أطلتُ الجلوسَ فأحسستُ بوجه آخر للبحر، بدأت أسمع صوت الأمواج القادمة (شششـــشش)، كأنّ كل موجة تنصبُ سبابةً أمام شفتيها تطالبُ بالهدوء... البحر العظيم أرسلها من أعماقه معلّما ندماءه الصمت ومُبلّغا إياهم أنه لا يحاور أحدا إلا حينما يكون صامتا. أحسست بذلك السحر. صارت المشاعر تتراقص بين صدغيّ كضوء شمعة تُلاعبها النسائم... ما أعجزَ الإنسانَ أحيانا عن الكلام.

الفن إحدى اللغات التي خاطبت بها الثورةُ الحمراءُ هذا الشعب، ولذلك تطفحُ مُدن كوبا بالغناء، الموسيقى، الرقص، الرسم، النحت.

فرق الموسيقى تَحتلُّ أركان الشوارع الكثيرةِ الزوّار وتُجاور المقاهي المزدحمة وتستغِلُّ المساحات المفتوحة بجانب المعالم السياحية أو الحدائق الجميلة. ربما كانت تقيهم من حرارة الشمس مظلّة، وربما اختاروا ظلّ شجرة كبيرة، وكثير ممن يُحيي موسيقى الشوارع كهول ما زالت قلوبهم تنبض بالأنغام، وعلى قارعة الطريق أمامَ الفرقة صحنٌ على المستمعين أن يرموا فيه شيئا من النقود، وربما تطفّلَ أحد أولئك الموسيقيين ليمدّ قبعته طالبا وضع النقود فيها، وربما كان لبعض السياح رغبة في التجربة فيدفع مِن أجل أن يجرّب الغناء معهم.

تشاركُ في أغنياتهم الطَبول بأنواعها كبيرةً وصغيرةً ومزدوجةً، وبطلُها دائما الغيتار. أما آلاتُ صنع الإيقاع فكثيرة لا تُحصى، ولعل أشهرَها آلة بسيطة هي عبارَة عن قطعتين متشابهتين تُمسِك كلُّ يد بواحدة منها، الآلة مجوّفة ويملأ جوفَها مادة كالحصى، وعندما تُهزُّ باليد تصنع للأغاني إيقاعا مشوّشا، وثمة آلات موسيقية أخرى كثيرة يبدو أن حصرها يُلزم بمعرفة غير قليلة بعلم الموسيقى.

وعندما يغنّون يتذكّرون الحرية مُجددا. ترنيمة الحبّ لجيفارا سمعتُها في كلِّ مكان؛ من شرفات النوافذ وفي الزقاقات وفي الحافلات؛ بأصوات وحيدة وأغنيات جماعية، بأصوات رجالية تؤدّيها كأنها تحيي الثورة، وبأصوات نسائية رخيمة تنتحبُ باكية، وفي كلِّ مرّة كان لها وقعٌ مختلف، واستطعتُ أن أفهمَ من أحدهم أن كلمات الأغنية تقول:

"من ليالي التاريخ تعلّمنا أن نحبّكَ
وبشموسِ شجاعتكَ قُدتَ رُوحَك إلى حصارِ الموت
عُمقُ روحِك الشفافةِ كان جليًّا لنا
أنتَ قائدُنا يا تشي جيفارا
وسنظلُّ نبكي كما بكينا طويلا معك ومع فيديل".

***

الجدرانُ الكبيرةُ الصمّاءُ لا بدَّ أن يُنطقها الرسم شيئا ما، وقلّ أن ينجو حائط كبير من ريشات الرسّامين ليصنعوا منه لوحة جدارية عملاقة، فالرّسم على الجدار في كوبا يمكن عدّه فنّا مستقلا.

في أطراف الساحات القديمة وعلى جَنبات الشوارع التي يفضّلها السياح وجوار الحدائق الجميلة وعلى الأرصفة المُحاطة بالأشجار -يظهر الرسامون بعدّة الرسم. يرسمون لوحات زيتية تذكارية تلتقطُ مشاهد من الحياة الكوبية؛ لوحة لسيارة كلاسيكية تجوبُ شوارع العاصمة، وأُخرى لسيارة واقفة تمرُّ بجانبها امرأة سوداء، وثالثة لسيارة واقفة بجانب بناية ذات واجهة تراثية؛ تلك الأقواس التي تحملُها الأعمدة؛ لوحات للمباني التاريخية في العاصمة؛ لوحات لأزِقّة هافانا القديمة؛ لوحات لقلعة مورو جوار الشاطئ المقعّر؛ لوحات غامضة لستُ أدري إلى أي مدارس الفن تنتمي.

رأيـتُ بناية مثلثة الشكل تقع بين تقاطع شارعين غير مُتعامدين وتنشأ بينهما زاوية حادة؛ رُسمَت أمواجُ بحرٍ هائجٍ على جانبي الدور الأول من البناية، ورُسِمَ على جانبيِّ الدورِ الثاني والثالث وحشٌ أسطوري مُفترس يسبح في ذلك البحر، ورُسِـم وجه الوحش في واجهة البناية التي تقابل تقاطع الشارعين.

وعندما يرسُمون لا ينسون صُنّاع النور أيضا، وصورة القائل "الثورة قويّة كالفولاذ، حمراء كالجمر، راسخة كالسنديان، عميقة كحبّنا الوحشي للوطن". رسَمَك في كوبا المهَرَةُ ومَن لا يتقنُون الكلام بلغة الريشة، ولكنهم جميعا يعترفون أن ليس في أيِّ منها صورة أجمل من الحقيقة، وتبقى الصورة التي التقطها ألبِرتو كوردا وحدَها تحكي الحقيقة؛ جبهةٌ مُشرِقة تعلوها قبعة محارب وعينان ناظرتان في أفق الأمل. تلك الصورة التي قيل إنها التقطت مِن وجه تشي ذلك البريقَ الذي يُوجد في الذهب وتلك الأنفةَ التي تُرى في وجه الأسد. إنها الصورة العالمية التي أصبحت أيقونة للنضال ضد الاستبداد.

ما زالت المدائنُ تزودني بالأسئلة... تعلّمتُ منها أن الأسئلةَ وجود والأجوبةَ محاولة للوجود... أن الأجوبةَ لا تستمد شرعيتها إلا من الأسئلة... حتى "أنا" لا تمتلكُ أيَّ قيمة بعدَ طرقِها لأيِّ باب إلا بعد أن تُوجد "مَن؟"... المدنُ تخلقُ في علاماتِ الاستفهامِ القدرة على التفكير.

مَرَّ بخاطري كل ذلك وأنا اشاهد الواجهة البحرية لمدينة هافانا تمرُّ أمامي ببطء. المدينةُ هنا تلتفتُ أمام البحر بابتسامة هادئة كأنها تستعدُ لأخذ صورة شخصية من أجل أن تُهديها إلى عاشقها. استمتعتُ بتلك التفاصيل وأنا أتأمّلها من سفينة متواضعة تأخذنا في جولة سياحية لنشاهد إطلالة المدينة على البحر.

كنتُ جالسا بآخر السفينة ولم أنسَ أن أتأمّل مشهد البحر وراءها، ظللتُ أتأمّل سطح البحر خلفها. عربيٌّ تدفعه غريزة الصحراء لأن يستمتعَ بقصِّ أثر السفينة على الماء. كانت السفينة تترك خلفها خطّين أبيضين يفترقان كلما ابتعدت السفينة، ثم يذوبان بهدوء في سطح البحر ليستمرّ الشكل (V) في مطاردة السفينة.

توقّفت السفينةُ على شاطئ ذلك الخليج الصغير. ألقيتُ نظرةً على جمال الخليج ونفسي تحدثني "مهما بلغَ عُمقُ البحر، فلا بد أن تخترقَه سفينة"... حينها أحسستُ... البحر والعرق المتقاطر من الجبين... النخل وخطوات الناس في الأزقة... بقايا المباني المتهدمة وألحان موسيقيي الشوارع... الأشياء في هذه المدينة تستنـصِتُـني. ثمة شيء يريد أن ينساب عبر مساماتي!... بماذا يريد أن يهمس لي كل ذلك؟ يا تُرى ما الدرس؟ مـا الـــدرس...

***

أجمل ما في المدائنِ صُدَفها... كنت أعرف جيّدا أن الضياعَ في الأماكن هو دلالُ تلك الصدفِ؛ أنّ الصدفة أهدت لمعارف الإنسان كثيرا من أسرار المكان. كولومبس اكتشف هذه القارة الكبيرة بالصدفة، وبالصدفة أيضا اكتشفَ ماجلان طريقا جديدا من أورُبا إلى الهند، ولكن الصدفة الكُبرى أن يكتشف الإنسان نفسه.

من أجل ذلك فقط اعتدتُ أن أمشي بحثًا عن أسحار الصُدَف. بمُلامَسة الأرض آلافَ المرات بأقدامنا نستحِثُّ المدن أن تخبرنا عن أسرارها. نعم؛ "بالمشي نكتشفُ المدن"، وأنا الذي تعلّم المشي مرّتين، مرة لأشعر بنفسي، ومرة لأشعر بالمدن، وها أنا ذا الآن أهِيمُ بلا جِهةٍ وقد أمسكتُ جيدا بلغتي؛ آلةِ التأمّل؛ الحاسّةِ السادسة التي بها أرى وأسمعُ وأتذوقُ وأشمُّ وألمسُ الأشياء.

تحرّيْتُ أن أسأل قبل كل شيء، فأجابوني "كل شيء آمِن ولكن لا تُقحم نفسَك فيما لا يعنيك". سألتُ عن معنى ما بعد (لكن)، فقالوا: "كن بعيدا عن أي مشكلة تحدث"... وما أسهلَ ذلك على أي غريب.

مدينة منعّمة بالأمن هافانا، ومقارنتها بعواصم أخرى في أمريكا اللاتينية تجعلك تتيقّن من ذلك. (ريـودي جانيرو) البرازيلية تبلغ فيها معدّلات الإجـرام والقتل أرقاما قياسية حتى قيل: إنه يسقطُ فيها من أثر الجرائم يوميا أكثر مما كان يسقطُ في اليوم الواحد في الحرب الفيتنامية! في تلك المدينة أكبر عدد من الناس ممن يلبسون السُّتر الواقية من الرصاص، وهناك أكبر عدد من السيارات المضادّة للرصاص، وهناك أيضا اختطافُ الأثرياء والمساومة على افتدائهم تجارةٌ رائجة، حتى إن الشركات الأمنية اضطرّت أن تغرسَ في أماكن خفيّة من أجساد الأثرياء رقائق يمكن التعرف بها على أماكنهم بواسطة الأقمار الصناعية في حال الاختطاف!

المُهم أني تزوّدت بقاموس المُسافر الإجباري، وظلّ ذهني يتأبّط بحرص (أهلا، من فضلك، شكرا، بِكَم؟...)، وأنا أتعامل معها بحذر بالغ مخافة الوقوع في مزالقِ اللغة الجديدة؛ فأنا أحفظ جيدا أن أحد متعلمي اللغة التايلاندية أراد أن يقول في موقف اعتذار "امنحني عُذرَكَ" فقال "امنحني دُبرَك"!

أخذتُ أمشي وأنا أتأملّ ما حولي بحواسّ لا تريد أن تنسى شيئا وبقلب يعي أن كل ما أراه سيكون يوما ما ذكريات، وبقُبّعة على جبهتِها نجمة اعتدت أن أتّقي حرارة شمس هافانا وأنا أتجوّل؛ تلك القبعة الثورية التي رأيتُها على رؤوس كثيرة.

في بعض ساحات هافانا يظهر مصوّرون بجانب كاميرات كبيرة الحجم على قوائم خشبية وفي أيديهم صور بلونين فقط. إنها صور الأبيض والأسـود التي لم يكن من حظّ هذا الجيل أن يتذكّروا طفولتهم بها. وجدتني أتذكر لحظات من سعادة الطفولة أمام مصوّر يضبط العدسة "لا تتحرك. ثبّت نفسك" ثم ينزع غطاء العدسة بخفّة يدٍ ويعيده بالخفة نفسها.

في إحدى الساحات رأيتُ جَمعا مُتحلّقا حول راقصَين من ذوي الأصول الإفريقية. كان رقصا فيه شقلبات وتلويح بالأيدي بطريقة مختلفة وركل بالأقدام يصاحب أحيانا وثبات عاليات، ومن السهل أن تتبيّن أنه ليس لحركات الراقصين ارتباط بإيقاعات الطبول المضروبة، وكنتُ قد عرفت أن ثمة رقصا في أمريكا اللاتينية يُخفي تحته حركات قتالية لأن البيض مَنَعوا الأفارقة المُستعبدين من التدرّب على فنون القتال، فستروا ذلك التدريب بالرقص، وأظن أن ذلك الرقص العجيب الذي رأيتُه هو من ذلك النوع.

وفي بعض الأماكن من هافانا تتسلّلُ إلى الأنف رائحةُ طِينٍ مُبتلّ. حينما كنتُ أبحث عن مصدر ذلك أجد مزارعا مُنحنياً على الأرض؛ فبتشجيع الدولة وبغرضِ تخفيفِ حاجة الموطنين من الخضروات والفواكه استُصلحت بعض الحدائق الصغيرة داخل العاصمة للزراعة... حتى مثل هذه الفكرة الصغيرة لا بد أن يكون بجانبها كلمة (ثورة) فسُمّيت (الثورة الخضراء)، ونظير ذلك أنه يوجد عند الكوبيين (الزهرة الوطنية)، وهو نوع من الياسمين، يُذكر أن النساء كُن يستخدمنه من أجل إيصال الرسائل للثوار أيام حروب الاستقلال، وعندهم (الطائر الوطني)، وهو طائر محلّيٌّ يحمل ريشه ألوان العلم الكوبي، وعندهم (الشجرة الوطنية)، وهي النخلة؛ الشجرة التي تصرّ على التمسّك بالأرض أمام الأعاصير الكثيرة، إنها رمز الصمود عند الكوبيين.

في بعض الأسواق رأيتُ برتقالات بلون إسفنجيّ أبيض على عربات الباعة المتجولين؛ وعلى تلك العربة الجوالة آلة يدويّة بسيطة جدا، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها تلك الآلة. إنها آلة تقشير البرتقال. يُوضع البرتقالُ بين حديدتين تمسكانِها من سرّتيها. تُدارُ تلك الحديدتان بمقبض يدوي فتدورُ البرتقالة، وحالَ دورانِها يكون بجانبها خطّاف بارز ينزع القشرة عنها.

حينما يدركني التعب أختار من المقاهي المنتشرة مقهى تـقيه الظلالُ جيدا، فأجلس في الطاولات الخارجية لأظلّ قريبا من مشاهد الحياة. كنتُ أتأملُ البهجة التي تشعُّ من وجوهِ الناس في هافانا فأحدّثُ نفسي: تلاميذ زوربا لا يُقيمون في هذه المدينة بل يعيشون فيها.

في تلك المقاهي كنت أرى المراوح أعلاهم تدورُ مسرعة تحاول أن تخفِّفَ الحرارة، وقريبا من مدخل المقهى يقفُ رجل العصائر يهرس أنصاف الليمون وأوراق النعناع مع السكّر وليضيف إليه الثلج وقليلا من الروم. إنه الـ(موهيتو)؛ الشراب الشهير الذي يشربه الكوبيون يطرحون به العقل وهمومه.

النخيل كثير الحضور، والنخلة إحدى رموز البلاد، وهي على شاطئ البحر أكثر، هناك حيث يمازِحُها الريح حين يهبّ فتبدي له كثيرا من الصبر في تخريب تسريحتها، ولكنه أينما كان ليس كالنخلة العربية، بل نخل عقيم إذا رماه الناس بالأحجار لا يردّ بشيء، وكل متجوّل في كوبا لا بد أن يكون له ذكرى استظلال بنخلة، فالنخل في كوبا مثل الحب في لبنان في كل مكان، وأنا كان لي في ظلها ذكريات جميلة.

ذات يوم قادتني خطوات الصدفة إلى محطة القطارات. إنها محطة قطارات أثرية بامتياز. استحدثَ الاستعمار تلك القطارات لتسيير تجارته ونقل المحاصيل الزراعية وأهمها قصب السكر والتبغ، ثم بقيت على تلك الحقبة القديمة دون تحديث وتطوير إلا قليلا، وصار ذلك القِدمُ في القطارات شيئا يستهوي فضول السياح وكاميراتهم. الوجوه الريفية البسيطة؛ أنواع السلال المعلقة على أكتافِ الريفيين؛ أيـادي المزارعين الخشنة؛ والملابس المتواضعة... كل ذلك يمكن رؤيته في تلك المحطات.

بأيّ روح كُتبت

إبراهيم محمد الهمداني

إنهـا اللحظات الفاصلة بين النـور والظلمة، لا يهم إن كانت فـي بداية يـوم أو نهايته، فهي فيهما سـواء إذ تكسو الوجود صفاءً وتخضّب الروح بتأمل عميق؛ هناك بعض الكلمات تتلمس طريقها في غياهب الكبت تسعى لتطبيب جرح ظنِّ اندماله تكشيرا وعبوسا، فآثر أن يظل مبتسـما وكريما يجود بابتسامات عميقة لكل ما حوله. أهـدى روحه لومضة سـراب، فعبثت بها كما يعبث طفل بكومـة جواهـر بين يديـه، لا يبالـي إن داسـها أو قضى حاجتـه عليهـا، لأنـه لا يعـرف قيمتها، غيـر أنها كانت تعـرف ولم تبـالِ، فكان عطاء من يملك لمن لا يسـتحق؛ وحدها الطعنة تعرف أن كلمات الأسـف لن تشفيها، وأن النـدم لن يغير مـرارة النصل في فم الجـرح؛ هل بإمكان كلمة "فراشـة" أن تطيـر وتغري الطفـل بملاحقتها من زهرة إلـى أخرى؟ أم هل تسـتطيع أن تمارس طقوسـها الوثنية فـي محراب اللهـب؟ جرح واحد فقط اسـتطاع أن يفني سـعادته حين وهبها لشـقاء الأرض، ولم يكتفِ بذلك، بـل طاف كل منابـع النكبات وجحيم العذابات، فلم يمر بمأسـاة إلا احتضنها، ولا عـذاب إلا احتواه، ولا شـقاء إلا احتمله، ولا دمعة إلا اسـتبدلها بفرحة غامرة، وكأنـه المعنيّ بتنقيـح الحياة من الآلام والمآسـي، بيد أنه لم يكن سـيزيف الـذي اختط المعاناة، ولا المسـيح الذي دفع ثمن خلاص البشـرية، كان فقط هو الذي يرى الحيـاة أهـون مـن أن تُعامل بجديـة صارمـة، وأرفع من أن تُؤخـذ بلا مبـالاة، فتكفل لها بدفع أقسـاط هائلة من المعاناة اليومية علّه يتمكن من تسـديد ولو جزء يسـير من المآسي البشـرية المتراكمة التي اقترضها وانتفع بها غيره، وحدها السماء كانت معه ترافقه بنظراتها الحانية مشفقة عليه، إنه المأسـاة التي تمشي على الأرض، بل هـو المـوت الذي يهـب الحياة ويدفـع ثمنهـا غاليا، ولا يريـد بذلك أن يصبـح أسـطورة أو أن يُذكر علـى قائمة المشـاهير أو أن يُعـزف اسـمه علـى ربابـات الرعاة في الليالي المقمرة، لم يطلب شـيئا، فقط كان يبتسم حين تثور عليـه الآلام، ثم يعانق السـماء بعينيه ويخبئ في روحها كلمة صادقة لا يعرفها سواهما، تلك هي اللحظة الأكثـر خطـورة وصدقا، فالوقـت الذي يسـتغرقه نطق (نعم أو لا) يترتب عليه مسـار حياة بأكملها، وفي معبد الشـمس حيث كانت الصلـوات والأدعيـة تتكلس على الجدران، والنذور تتثاءب فوق الأعمدة، وخيوط البخور تنسج بيتا لأحلام البشر، ودماء القرابين تشكل علامات اسـتفهام متناثرة لا نهائية على ساحات المذابح، هناك كان يكتب ترنيمة للسماء:

مُذ نُفيت وأنا أبحث عن وطن لوطني؛

أيُّ دهشـة سيضيفها الموت حين يدهمني؟ أتمنى عليه ألا ينتظر مني وليمة فاخرة، فلم أترك له غير حزمة عظام بالية تلفها أسمال جسد متهالك،

عذراً عزيزي!

هـذا عشـاؤك الأخيـر ولتتناولـه في حفـرة محكمة الإغلاق، أمـا أنا فقد منحتني السـماء جنة تليق بحبي وحزني؛

الشـمعة لا تعرف العلاقة بيـن ضوئها ولهبها، حتى السماء تقرأ السعادة لكنها لا تدري بأي روح كُتبت؟

"سوسيولوجيا الفن

صـدر حديثـاً عـن المنظمة العربية للترجمة كتـاب: "سوسـيولوجيا الفـن" تأليـف ناتالـي إينيك، ترجمـة الدكتور حسين جواد قبيسي.

علـم اجتمـاع الفن تخصـص تتقاطـع فيـه مقاربـاتٌ متنوعة مثـل التاريخ الثقافي والجماليـات وتاريخ الفن وعلم النفس وعلم الاجتمـاع. وفي هذا الكتـاب عرض واضح ودقيق سـعى إلى إيجاد الخيط الرابط بين هذه المقاربـات، وكذلك إلى التمييز فيها بين القديم الذي لم يتمكن من سـبر العمق الفني، والجديد الذي هو أقل تأدلجاً ولكنه غير معروف، بما فيه الكفاية، لدى غير المتخصصين.

وسـواء تعلّـق الأمـر بالأثـر الفنـي ذاتـه أو بإنتاجـه وتلقيـه فـإن الإحالـة علـى الأعمـال السوسيولوجية المتراكمة، منذ أكثر من أربعين سـنة، والجهد المبذول في تحديد مسـاهماتها النظريـة والمنهجيـة والتطبيقيـة يجعـل من هـذا الكتاب مرجعاً مختصـراً ومفيداً للباحثين والطلاب العرب.

- يقع الكتاب في 224 صفحة.

حوارات مع نفسي

هنـاك مـرض معـروف فـي مجال علم النفـس والتحليل النفساني، تُطلق عليه تسمية "الفصـام "، أو "انفصـام الشـخصيّة". ويتمثـل أهـم أعراضـه، حسـب قامـوس الطـب، في ميـل المصاب فيه إلـى الانطـواء علـى النفس، والإغـراق فـي عالـم الوهـم والتخيّـل، بعيـدا عـن الواقع، وعدم الانسـجام عبـر المزاج والفكر.

إذا كان التعـرّض لتوصيـف حالة المصابيـن بـ"الفصام" شـائعا كثيـرا فـي المجـال الطبـي، فـإن القليـل مـن العامليـن فـي حقـل الكتابـة والأدب، تطرّق الى هذه الحالة. ومـن هنـا تأتي أهميـة عمل الكاتـب الفرنسـي بوبو تونكا، الـذي يقـدّم فيه شـهادة عن حالتـه الشـخصية باعتبـاره مريضا هو نفسـه، بالعصاب. ولكنـه، حاليـا، فـي مرحلـة النقاهـة، كمـا يقـول. ويحمل الكتـاب عنـوان "حـوارات مع نفسي".

مـا يؤكّـده بولـو تونـكا هـو أنه فـي ذلك المسـار الصعب الذي مرّ فيه، وهو في اللحظة التـي كان فيهـا عنـد نقطـة الاستسـلام الكامـل للمرض، حدث أمر لم يملك له دائما أي تفسـير. ومفاده، انه أحسّ أن الحيـاة والأمل، يعـودان إليه، وأن المرض أخذ بالتقهقر. مع ذلك لم يكن ذلك التحسّـن في حالتـه الصحية سـوى لفترة من الزمن.

ومن جديـد، تدهورت حالته الصحيّـة، مـع رغبـة ملحّـة بتقديـم شـهادة عـن معركته مـع المرض. ومن هنا كان قراره فـي أن يجري نوعـا من اللقاء بين "شطرين"، "طرفين"، من كيانه يسـميهما: هو ونفسـه. ومـن هنـا أيضـا جـاء عنوان الكتاب: "حوارات مع نفسي". لكن ذلك "التقسـيم" داخل الـذات، يتماشـى بالتحديـد مع حالـة الفصـام الموصوفة فـي عـالم الأمراض النفسـية، أو مـا يصفه المؤلـف بـ"ذلك الانقسـام الـذي يعانـي منـه الإنسـان المصـاب بانفصـام في شـخصيته". ويشـير الى أن الحوار بين المريض وذاته، لـه فضائـل علاجيـة كبيـرة.. ويساعد في "توحيد الوجود" كخطوة لا بدّ منها للخروج من النفق.

ومن الأفكار الرئيسـية التي يؤكّد عليهـا المؤلف، الإلحاح علـى أهميـة الاسـتماع الـى الآخـر، ومحاولـة الاعتراف به. وهـذا ما يعبّـر عنـه بالقول: "معرفة الاعتـراف بألم الآخر، علم لا يتشـارك فيه كُثر. وفي أغلـب الأحيان، عندمـا يبوح لكم أحد بأنه يتألّم من الأفضل أن يقال له: الأمر ليس خطيرا. أو ربمـا القول: هـذه الحال لن تسـتمرّ طويلا. هذا مـع العلم أن ليس هناك سوى الاعتراف بألـم الآخر، ما يمكن أن يدخل الطمأنينة إلى نفسه ويساهم في التئام جروحه".

ويحـذّر المؤلـف، علـى ضوء معاناتـه، من حالة قلق ربمـا تنبعـث مـن جديد في أيّة لحظـة. ويمكنها أن تدفع المعني بها في أسوأ الحالات، الـى الانتحـار. وفـي أفضل الحالات، إلـى التوجّه إراديا، الـى المستشـفى وطلـب العلاج، مع كل ما يترتب على ذلك من تجربة قاسية، يصف المؤلف تفاصيلها على مدى العديد من الصفحات.

المؤلف في سطور

بولو تونكا. كاتب فرنسـي يعيـش، منـذ سـن الثامنـة عشـرة مـن عمـره، حالـة "انفصـام في الشـخصية". وهو، حاليا، كما يقدّم نفسـه، في مرحلة التماثل للشـفاء. وهذا هو كتابه الأوّل.

الكتاب: حواراًت مع نفسي
تأليف: بولو تونكا - الناشر: اوديل جاكوب-باريس-2013 - الصفحات: 240 صفحـة- القطع: المتوسط